

الفصل الرابع

القديسيون ضد حشود المسيح الدجال

المخلصون في الأيام الأخيرة

مع ندرة المدونات حول تلك الفترة (ص ٧١) إنها كافية لبيان انه في الحملة الصليبية الشعبية ، كان الجيشان الغيبي فعالا ، وبالنسبة للدهماء إنهم رأوا أنفسهم فعالين في الانجاز الكبير الذي كان في اتجاهه يعمل كل شيء منذ بداية الزمان ، وعلى كل الجوانب كانوا يشاهدون « الآيات » التي تميز بداية الأيام الأخيرة ، ويسمعون كيف أن « البوق الأخير سيمسيعلن مجي الحـكـم الصالح » وفوق كل شيء يبدو أنهم كانوا مأخوذين بنبوءة الامبراطور العظيم الذي سيرحل في الأيام الأخيرة الى القدس ، ويبدو أنهم قد فعلوا كل ما أمكنهم لاقتناع انفسهم بأنهم يقادون من قبل الملك الخفي .

وفي الأصل في النبوءات الاغريقية التي كانت منتشرة في الشرق ، كان الامبراطور الأخير امبراطورا رومانيا يحكم من القسطنطينية ، ولكن عندما ترجم في القرن الثامن « المنهج الكاذب » الى اللاتينية ، في باريس ، بدأت الدعوة الى تفسيرات جديدة . وكان المتوقع انه عندما يحتل امبراطور الأيام الأخيرة مكانه في التخيلات الغيبية في الغرب ، فإنه سيقف عن أن يكون بيزنطيا ، ومن وجهة النظر الأوروبية الغربية ، كان امبراطور القسطنطينية شخصية بعيدة مبهمة ، ومن جانب آخر كان الغرب قادرا على اقتناع نفسه انه بحصول شارلمان على اللقب الامبراطوري فإنه سيشهد بعثا لامبراطورية الرومانية .

وبدا ان الفجوة التي تركها خلع آخر الأباطرة في الغرب ، بعد ان بقيت شاغرة أكثر من ثلاثة قرون قد تم ملؤها بأعظم ما يمكن ، عندما توج في كنيسة القديس بطرس في روما يوم عيد ميلاد المسيح من عام ٨٠٠ شارل ملك الفرنجة وملك اللومبارد ، امبراطورا للرومان ، ومنذ ذلك الحين كان بالإمكان تصور امبراطور الأيام الأخيرة كملك غربي ، وبقي كذلك مع ان شارلمان لم يتترك امبراطورية أرضية وراءه ، وفي كل من الجزء المتعلق بالمقاطعات التي كانت تابعة لشارلمان ، والتي أصبحت فرنسا ، وفي (ص ٧٢) تلك التي أصبحت ألمانيا ، استمر الناس يحلمون بامبراطور عظيم سيقوم في وسطهم وستتحقق بسببه نبوءات السبلانيين ..

ونحو نهاية القرن الحادي عشر ، وبينما كانت فكرة الحرب الصليبية قائمة ، أحرزت هذه التخيلات جيشانا جديدا والحاسا وقبل الحملة الصليبية الأولى ببضع سنوات نجد ان بنزو أسقف البا يتنبا بأن الملك الألماني الحاكم والامبراطور الروماني هنري الرابع سيفوز بيزنطة ، ويهزم الكفار ويزحف نحو القدس . وإنه سيلتقي المسيح الدجال هناك وسيهزمه ، وبعد ذلك سيحكم امبراطورية عالمية حتى نهاية العالم ، وصدور هذه الكلمات عن أسقف ذي عقلية سياسية كان نصيرا متحمسا للامبراطور في صراعه مع البساوية ربما يجعلها لاتؤخذ بمعناها الظاهري ، ولكن عندما تجمع الدهماء بعد ذلك بوقت قصير من أجل الحملة الصليبية في جو من الاثارة المحمومة ، عادت النبوءات السبليزية القديمة للظهور وقد اكتسبت ديناميكية مذهلة ، وعقب راعي دير متعلم بإزدراء قائلا : « إنه بفضل نشاط الأنبياء المزيفين كان هؤلاء الناس مشبعين بحكايات حول قيام شارلمان من الموت بهدف قيادة الحملة الصليبية » .

وفي الواقع ان حشدا عظيما من التراث الشعبي كان يتجمع حول الشخصية الهائلة لأول الكارولنجيين لقد أصبح شارلمان يرى فوق كل بطل نبيل كنصير للمسيح والمدافع الذي لا يتعب عن النصرانية

ضد القوة المسلحة للاسلام ، وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر اصبح الاعتقاد شاملا تقريبا انه قد قاد مرة حملة صليبية الى القدس واجبر الكفار هناك على الهرب ، واعداد المسيحيين الذين طردوا الى وضعهم السالف ، وتروي اكثر من حولية كيف ان الصليبيين في ١٠٩٦ رحلوا على الطريق الذي كان يفترض ان شارلمان قد بناه بهذه المناسبة ، وعلاوة على ذلك كان الاعتقاد ايضا على نطاق واسع ان شارلمان لم يموت بالمرة ، وانما كان نائما فقط سواء في مدفنه في اخن او بداخل احد الجبال ، حتى تأتي الساعة كي يعود الي عالم الرجال ، وعلى هذا كان من السهولة بدرجة كافية بالنسبة للوعاظ الشعبيين التجنيد للحملة الصليبية ، والجمع بين هذه القصص ونبوءات السبلزيين ، وان يقودوا الشعب العادي ليرى في شارلمان ذلك الامبراطور العظيم الذي كان عليه ان ينفذ عنه النعاس ، ويقضي على قوة الاسلام ، ويقوم عصر النعيم الذي كان مقدر له ان يتقدم على النهاية : هل اصبح شارلمان المبعوث حيا ايضا ، في ايدي المتنبئين ، ملكا شحاذا وراعيا للفقراء ، يمكن مقارنته بملك الطفور الذي مع انه كان معدما ، كان اعلى الناس منزلة ، وحصل على القدس نفسها كهدية ؟ اننا لانعرف ولكن الفقراء بالتاكيد كانوا قادرين على تحويل الامبراطور النائم "للنهج الكائب" حسب رغباتهم الخاصة الى مخلص لا يقضي فقط على الكفار بل يسعف (ص ٧٣) ايضا ويرفع الطبقة الدنيا ، وقد فعلوا ذلك كثيرا بدرجة كافية في القرون التالية ولعلمهم نفذوا ذلك بالفعل في زمن الحرب الصليبية الاولى .

وقد شعر الدهماء ان الامبراطور الاخير لا بد منه لتحقيق امالهم العميقة حتى أنهم لم يروا فيه مجرد شبح شارلمان القائم بل ايضا احيانا احد الرجال الاحياء ، والقادة الفعليين للصليبيين ، وكانت صورة المخلص العملاقة تنعكس مسطرة على غودفري اوف بوليون دوق اللورين الأدنى وعلى ذلك السياسي العنيد ، ريموند صنجيل كونت طولوز ، وربما ايضا على ذلك الفارس النورماندي الذي يقال انه قد اصبح ملك الطفور ، وفوق كل شي يبدو جليا ان الرجل الذي

أوحى بالمذبح الكبيرة لليهود في المدن الواقعة على طول الراين ، أي اميكو أو امريش كونت ليتنجن قد فرض نفسه على أتباعه كامبراطور الأيام الأخيرة ولقد كان بارونا اقطاعيا سيء السمعة لضراوته ، ولكنه ادعى بأنه قد دعي لحمل الصليب في الرؤى والالهام الالهي ، وفي احد الأيام جاءه رسول من المسيح ووضع على لحمه علامة - لاشك أنها العلامة التقليدية للاختيار الالهي أي الصليب ووضعها على أو بين لوحى الكتف ، وهي التي كان يعتقد ان شارلمان كان يحملها، وأن الامبراطور الأخير أيضا سيحملها، وادعى اميكو أن هذه العلامة كانت رمزا مؤشرا على أن المسيح نفسه سيقوده الى النصر ، وفي الوقت المناسب سيضع تاجا على رأسه ، وأن هذا التتويج سيحدث في ذلك القسم من جنوب ايطاليا الذي كان يحكمه الامبراطور البيزنطي ولم يكن هذا كله يعني سوى أن هذا السيد الألماني الصغير كان ينتحل الدور الذي حاول أسقف بنزو عبثا أن يضيفه على الامبراطور هنري - ولهذا قرر أنه سيكون الامبراطور الغيبي الذي سيقوم بتوحيد الامبراطوريتين الغربية والشرقية ، ثم يشق طريقه الى القدس ؟ وفي الحقيقة كانت حملات اميكو مخزية بدرجة كافية ، وجماعته من الدهماء الألمان والفرنسيين والفلمنك واللورين لم تصل ابدا الى أسيا الصغرى وإنما هزمت وشتت من قبل الهنغار ، وعاد هو نفسه الى وطنه بمفرده ، ومع ذلك فان هالة القوة الخارقة كانت تلصق باميكو ، وبعد مقتله في ١١١٧ بسنوات افترض أنه يتابع نوعا من الوجود في جبل قرب ورمز رؤي منه يظهر من وقت لآخر وسط فرقة مسلحة ، وهذه اسطورة توحى بقوة بأن الخيال الشعبي قد أصر على تحويله الى بطل نائم لا بد ان يعود يوما ما .

اما بالنسبة للحملة الصليبية الثانية لم يكن هناك شك حول من كان المرشح المناسب لدور الامبراطور الأخير ، ففي حين لم يشترك أي ملك في الحملة الصليبية الأولى ، إنه بعد نصف قرن عندما ناشد البابا يوجينوس لتقديم المساعدة لمملكة القدس التي كانت تتوسل بشدة ، استجاب لويس السابع ملك فرنسا بحماس وفي يوم عيد

ميلاد المسيح في سنة ١١٤٥ أخذ الملك على نفسه عهد الصليبيين في الكنيسة الملكية في سانت ديزيس بين مشاهد الحماس الشعبي الكبير (ص ٧٤) ومنذ انقضاء القرن كانت هناك نسخ جديدة منتشرة من التيبورتينا التي تنبىء بملك مقبل لفرنسا سيحكم كلا من الامبراطوريتين الغربية والشرقية وبيزنطة والذي في النهاية كامبراطور للأيام الأخيرة سيضع تاجه ورياءه في الجلجلة، ومن الطبيعى بدرجة كافية انه عندما انتاب الحماس الصليبي مرة أخرى سكان أوروبا الغربية انطبقت النبوءة على لويس ، وفي الوقت نفسه بينما كان المتنبيء رودلف يدعو لمذبحة اليهود ، جاء هاتف غيبي ايضا على لسان متنبىء آخر وجرت دراسته بلهفة ، وكل ما كان واضحا حول هذا الهاتف هو انه وعد لويس بمسند القسطنطينية ، وبابل وامبراطورية في آسيا الصغرى ، وأضاف انه عندما بلغ هذا القدر فان الحرف « ل » سيتحول الى « ك » وهذه الايماءات تكفي لتدل على برنامج أخروي كامل ، ان لويس سيصبح امبراطور الشرق ، يحكم بيزنطة ثم يستولي على « بسابل » التي كانت في نبوءات السبلانيين تصور على انها العاصمة الرمزية للكفار ومأوى الشياطين ومسقط رأس المسيح الدجال - فهي نوع من النظير الشيطاني لمدينة القدس ، وفي النهاية يصبح الملك الذي سيكون اسمه « ك » (كما في التيبورتينا) - وبكلمات سيكون ذلك كوندستانس الجديد أو المبعوث المقدر له ان يكون امبراطور الأيام الأخيرة .

وكان تأثير هذا الهاتف كبيرا جدا ، ويبدو فقط من دراسة السبلانيين ان القديس برنارد كان قد اقنع بالتغلب على معارضته الأولى للوعظ بالحملة الصليبية ، وانه لولا تلك التعاليم ربما لم تكن هناك حرب صليبية ، علاوة على ذلك كان الهاتف قد درس لا في فرنسا فقط بل في ألمانيا ايضا حيث كان الملك كونراد الثالث مجرد معارض صليبي وليس منافسا بالمرة للويس ، ومع ذلك لم يكن لويس نفسه على كل حماسه الصليبي على الاطلاق ميالا لأن يكون هناك ضغط أخروي عليه ، ولكونه ملكا حقيقيا وليس هاويا كان

على أي حال مشتركاً طوعاً أو كرهاً في المؤامرات السياسية والصراعات التي لازمت هذه الحملة الصليبية من البداية ، وكانت النتيجة انه بينما كان ملكاً فرنساً والمانيا يشقان طريقهما الى الحصار الهزلي لدمشق ترك الدهماء يرهقون بالمذابح والمجاعة ، ومرتبكين بلا قيادة ليتابعوا وحدهم السراب المهلك لمملكة القديسين .

الحشود الشيطانية :

رأى الدهماء الذين شاركوا في الحملة الصليبية الشعبية ضحاياهم وقادتهم بتعابير الايمان بالأخويات التي استمدوا منها أساطيرهم وخرافاتهم الاجتماعية (ص ٧٥) وطبقاً لتقاليد يوحنا والسبلانيين كليهما ، قبل ان يبرز فجر الالفية على الكفر أن ينتزع ويزال ، بمعنى ان مثل العالم المسيحي المقدس هي بالطبع بعمر المسيحية نفسها ، ومع ذلك بقيت المسيحية عادة كما كانت في أصلها ديانة تبشيرية ، كانت تصر على ان إزالة الكفار يجب ان تنجز من خلال تحويلهم للديانة المسيحية ، والجموع المسيحية التي بدأت في التشكل في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من جانب آخر لم تر سبباً بالمرة في ان لا تحقق هذه الازالة بصورة مساوية عن طريق الابدان لمن لا يدخلون في المسيحية ، وعبر نشيد رولاند الملحمة الشهيرة التي كانت التجسيد الأدبي الأعظم تأثيراً لروح الحملة الصليبية الأولى وفيها تم التعبير عن الموقف الجديد بوضوح تام .

لقد استولى الامبراطور على سرقسطة ، و ارسل ألفا من الفرنجة لتفيش المدينة بشكل شامل : المساجد و الكنس اليهودية ، و حطموا الأوثان و التماثيل بمطارق حدادية و بلط ، و من ثم لم يعد هناك مكان للتعاويد و الشعوذة . فالملك يؤمن بالرب ، و يرغب في خدمته ، و اساقفته يباركون الماء و الوثني يؤتى به الى بيت العمودية ، فاذا قاوم أي واحد منهم شارلمان ، أمر الملك بشنقه أو حرقه حتى الموت أو ذبحه بالسيف « وفي عيون دهماء الصليبية كان ضرب أو ايداء

المسلمين واليهود أو قتلهم أول عمل في تلك المعركة الأخيرة - حسبما كانت بالفعل في تخيلات المؤمنين بالأخرويات لدى اليهود والمسيحيين الأوائل - التي تتأوج بقتل أمير الشر نفسه ، وكان فوق تلك الحشود اليانسية ، وهي تتحرك للقيام بالمذبحة ، يلوح شبح المسيح الدجال ، ويسقط الظل العملاق المرعب حتى عبر صفحات الحوليات : ان المسيح الدجال قد ولد بالفعل ، وفي اي لحظة ربما يقيم المسيح الدجال عرشه في معبد القدس ، وحتى بين رجال الأكليروس الكبار كان هناك بعض من كان يقول مثل هذا ، وعلى الرغم من قلة قيمة هذه التخيلات في حسابات البابا أوربان . كانت الحوليات تذهبها حتى اليه في محاولة لوصف الجو الذي انطلقت فيه الحملة الصليبية الأولى : « انها إرادة الرب » هكذا جعل أوربان يتفوه في كليرمونت ، وانه من خلال جهود الصليبيين سستزدهر المسيحية مرة أخرى في القدس ، في هذا الزمان الأخير ، حتى انه عندما يبدأ المسيح الدجال حكمه هناك - كما يجب ان يفعل قريباً - سيجد عددا كافيا من المسيحيين للقتال .

ومع تخصيص الكفار بأدوارهم في دراما الأخرويات ، حولهم الخيال الشعبي الى شياطين ، وفي الأيام السوداء للقرن التاسع ، عندما كانت النصرانية مهددة حقا بالتقدم المنتصر للاسلام قرر بعض رجال الأكليروس (ص ٧٦) بحزن ان محمدا (ص) لا بد كان « نذيرا » بمجيء المسيح الدجال الشرقي ، وراوا في المسلمين عموما كهنة للمسيح الدجال ، والآن وقد شنت النصرانية هجومها المضاد ضد الاسلام الذي كان بالفعل في تقهقر ، صورت الملاحم الشعبية المسلمين كمخلوقات غريبة ذات مجموعتين من القرون (امامية وخلفية) واعتبرتهم شياطين لاحق لها في الحياة .

ولكن اذا كان العربي (وخليفته التركي) قد بقيا في الخيال الشعبي بصفة شيطانية معينة ، فان اليهودي كان صورة مرعبة أكثر وكان اليهود والعرب يعتبرون بشكل عام متقاربين جدا ، ان لم

يكونوا متماثلين ، ولكن حيث ان اليهود يعيشون مبعثرين في أوروبا المسيحية فانهم أصبحوا يشغلون القسم الأكبر حجما في الايمان الشعبي بالشياطين ، علاوة على انهم كان يشغلونه منذ فترة اطول بكثير ، مع نتائج امتدت عبر الأجيال ، والتي تضمنت مذابح الملايين من اليهود الأوروبيين في منتصف القرن العشرين، ومع الزمن بدأوا يتخذون خصائص شيطانية مميزة وأصبح اليهود ابعد من ان يكونوا قادمين جدد الى أوروبا الغربية، وفي اعقاب الصراع المفجع ضد روما وتدمير اليهود في فلسطين حملت الهجرات وعمليات النفي الكبيرة اعدادا كبيرة من اليهود الى فرنسا وواي الراين ، ومع انهم لم يحرزوا في تلك الأراضي بروزا ثقافيا او نفوذا سياسيا كما كان لهم في اسبانيا التي ساد فيها الاسلام فان نصيبهم في اوائل العصور الوسطى لم يكن بأي حال صعبا ، ومن الفترة الكارولنجية وما بعدها كان هناك تجار يهود يسافرون جيئة وذهابا بين أوروبا والشرق الأدنى بالبضائع النفيسة ، مثل التوابل والبخور والعاج المحفور ، وكان هناك ايضا حرفيون يهود كثيرون ، وليس هناك دليل يوحي بأن اليهود كان ينظر اليهم في تلك القرون الأولى بكرهية اوخوف خاص من قبل جيرانهم المسيحيين بل العكس كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين اليهود والمسيحيين منسجمة ، والصدقات الشخصية والمشاركة التجارية لم تكن غير شائعة ، ومن الناحية الثقافية قطع اليهود شوطا بعيدا في تكييف انفسهم مع البلاد المختلفة التي سكنوها ، وبقوا يهودا ، لقد رفضوا أن يذوبوا في السكان الذين عاشوا بينهم ، وكان ذلك حاسما من أجل مصير أبنائهم من بعدهم .

ورفض الذوبان هذا الذي تكرر في الأجيال الكثيرة جدا من اليهود منذ بدأ التشمتت في القرن السادس قبل الميلاد ، هو في ذاته ظاهرة غريبة جدا ، اللهم الا باستثناء الغجر الى حد ما ، ويبدو أنه ليس هناك شعب تشمتت بعيدا وعلى اتساع كبير ، وليس له وطن ولا وطنية ولا ارض خاصة به ولا حتى أي تجانس عرقي كبير بقي حتى الآن ككيان ثقافي غير محدود ، ويحتمل أن حل هذا اللغز الاجتماعي

يوجد في الديانة اليهودية التي لم تعلم فقط. اتباعها - مثل المسيحية والاسلام - أن يعتبروا أنفسهم كشعب مختار من (ص ٧٧) قبل رب كلي القدرة ، بل علمتهم أيضا أن يهتموا بالمحن المشتركة الساحقة - الهزيمة والاذلال والتشتت - كرموز فيها دليل على عطف الهي وكضمانات لمستقبل جماعي مبارك ، وكان الذي جعل اليهود يبقون يهودا ، كما يبدو هو اقتناعهم التام بأن التشتت كان مجرد تكفير مبدئي عن الخطيئة المشتركة ، وتحضير لمجيء المسيح ، والعودة الى أرض مقدسة جديدة ، ومع أنه بعد الانهيار النهائي للدولة اليهودية ، كانوا عادة يعتقدون أن هذا الاكتمال يعود الى مستقبل بعيد بغير حدود ، علاوة على أنهم بهدف ضمان بقاء الدين اليهودي احكمت صياغة مجموعة من الطقوس منعت بشكل فعال اليهود من الاختلاط بالناس الآخرين ، فالزواج المتبادل مع غير اليهود كان محظورا ، والأكل مع غير اليهود جعل في غاية الصعوبة حتى قراءة كتاب غير يهودي كان إثما .

وربما كانت هذه الظروف كافية لشرح لماذا بقيت اليهودية كل هذه القرون من الشتات كطائفة معترف بها بوضوح ، مرتبطة بشعور قوي من التماسك بعيدا نوعا ما ومتحفظة في موقفها من الغرباء ومتعلقة ببقظة وحذر بالمحرّمات التي صممت لهدف تأكيد وتخليد عزلتها ، ومن جانب آخر إن هذه الوقاية الذاتية والميل الانعزالي لا يمكن أن يفسرا بشكل كاف بالكراهية الغربية في شدتها والمتواصلة التي كانت في المسيحية وفي المسيحية فقط - موجّهة ضد اليهودية ، أكثر منها تجاه أي مجموعة أخرى خارجة عنها ، وما يفسر ذلك هذه الصورة الخيالية تماما لليهودي التي استحوذت فجأة على خيال الحشود الجديدة في زمن الحملة الصليبية الأولى .

وقد مهدت التعاليم الكاثوليكية الرسمية الطريق ، فقد مالت الكنيسة دائما الى اعتبار المعبد اليهودي نفوذا خطيرا وحتى منافسا محتملا ولم تتوقف أبدا عن متابعة الهجوم العنيف ضد اليهودية ، وعلى مدى أجيال تعود العامة من المؤمنين بالمسيحية أن

يسمعوا الادانة المريرة لليهود من منبر الوعظ كمنحرفين فاسدين عنيدين وناكرين للجميل لانهم رفضوا القبول باللاهوتية المسيح ، وايضا كحملة ذنب رهيب موروث لقتل المسيح ، علاوة على أن التقاليد المتعلقة بالايمان بالآخرويات قد ربطت طويلا بين اليهود والمسيح الدجال نفسه ، وبالفعل كان علماء اللاهوت في القرنين الثاني والثالث يتنبأون بأن المسيح الدجال سيكون يهوديا من سبط دان ، وقد أصبحت هذه الفكرة مألوفة حتى أنها في العصور الوسطى كانت مقبولة حتى من قبل اختصاصي الفلسفة اللاهوتية مثل القديس توماس الأكويني ، وكان يعتقد أن المسيح الدجال سيولد في بابل ، وسيترعرع في فلسطين وسيحب اليهود أكثر من كل الشعوب ، و سيعيد بناء المعبد لهم و سيجمعهم من شتاتهم معا (ص ٧٨) و سيكون اليهود من جانبهم أكثر أتباع المسيح الدجال اخلاصا وسيقبلونه كمسيح قدر له أن يستعيد الأمة ، ولأن تطلع بعض اللاهوتيين الى تحول عام لليهود الى المسيحية تمسك آخرون بأن عماهم سيبقى حتى النهاية ، وأنهم عند الحساب الأخير سيرسلون مع المسيح الدجال نفسه ليعانوا من عذاب الجحيم الى الأبد ، وفي خلاصة المعتقد التقليدي بالمسيح الدجال التي انتجها ادسو مونتييه - أن - دير في القرن العاشر ، والتي بقيت الأصل الذي يستشهد به خلال العصور الوسطى نجد أن المسيح الدجال وإن بقي يهوديا من سبط دان قد أصبح خارقا للطبيعة وشريرا ، وسيكون من نسل عاهرة وحقيرا لا قيمة له على أنه في لحظة الحمل به يدخل الشيطان رحم العاهرة كروح وبذلك يضمن أن الطفل سيكون تجسيدا حقيقيا للشر ، وفيما بعد ينفذ تعليمه في فلسطين من قبل ساحرة ومشعوذين ، سيلقونه الفن الأسود وكل الشرور .

وعندما تبنت حشود أواخر العصور الوسطى كل الذبوءات المتعلقة بالآخرويات كانت كل هذه التخيلات تعامل بجدية مميتة وتفصل في أساطير غريبة عجيبة وحيث أن الشخصية البشرية للمسيح الدجال كانت تميل للاندماج في الشخصية الشيطانية

لابليس ، كان هناك ميل لاطهار اليهود كشـيـاطـين يخدمون إبليس ، وفي الدراما والصور كانوا يظهرون كثيرا كشياطين بلحى وقرون ماعز ، في حين حاولت السلطات في الحياة الحقيقية والدينية والمدنية على السواء أن تجعلهم يضعون قرونا على قبعاتهم ، ومثل الشياطين الأخرى كانوا يتخيلون ويصورون مرتبطين ارتباطا وثيقا بمخلوقات ترمز للشهوة والقذارة : وحوش ذات قرون ، خنازير ، ضفادع ، ديدان ، أفاعي وعقارب ، وبشكل معكوس كان الشيطان نفسه عادة يعطي ملامح يهودية ، وكان يشار إليه على أنه « أبواليهود » . وكان الأهالي مقتنعين بأن اليهود في معبدهم يعبدون الشيطان في صورة هر أو ضفدع - ويلتمسون عونه في القيام بالسحر الأسود ، ومثل معلمهم المفترض كان الاعتقاد بأنهم شياطين التخريب الذين هدفهم الوحيد هو تخريب المسيحية والمسيحيين أو كما سموهم في التمثيلية الأعاجيبية الفرنسية : « شياطين الجحيم وأعداء الجنس البشري »

وإذا بدا أن قوة اليهود أكبر مما كانت أبدا ، فإن فعلهم للأشر الذي يفوق المدى ، وشعونتهم الأكثر أذى كانت مجرد علامة أخرى أن النهاية قد باتت حقا وشيكة ، وكان يعتقد أنه في التحضير للصراع الأخير سيكون لليهود مباريات غريبة هم فيها كجنود للمسيح الدجال ، سيمارسون الطعن ، وحتى الأسباط العشرة الضائعة من بني إسرائيل الذين راهم كوموندليس بتمثابة الجيش - المنتظر للمسيح أصبحوا يشبهون بمجموعات المسيح الدجال أي شعوب يأجوج وماجوج التي وصفها (ص ٧٩) النهج الكاتب على أنها تعيش على اللحم البشري والجثث والأجنة التي يمزقون من أجلها أرحام أمهاتهم ، وعلى العقارب ، والأفاعي وعلى كل الزواحف الأكثر إثارة للتقرز ، وكتبت المسرحيات الدرامية التي تظهر كيف أن شياطين اليهود ستعاون المسيح الدجال على غزو العالم حتى عشية المجيء الثاني وبداية الألفية السعيدة ، فوقتها سيبدأ المسيح الدجال واليهود معا بين ابتهاج المسيحيين ، وأثناء أداء مثل هذه الأعمال الفنية كانت القوة المسلحة لازمة لحماية حي

اليهود من غضب الجماهير ، قد يصير البابوات والمجامع على أنه مع أن اليهود يجب عزلهم واهانتهم حتى يوم تحوّلهم الى المسيحية ، يجب بالتأكيد عدم قتلهم ، غير أن مثل هذه الرقة كان لها تأثير محدود على الجماهير الهائجة التي اكتسحتها آمال ومخاوف الأخرويات ، وأقلعت بسبب ما تعلمته على الانغماس في الصراع الهائل للأيام الأخيرة .

وغالبا ما عزيت كراهية اليهود الى دورهم كمقرض للأموال ، وإنه لمفيد حقا معرفة كم كانت العلاقة بالتأكيد ضعيفة فعلا ، ذلك أن تخیلات اليهودي الشيطاني موجودة قبل حقيقة إقراض المال اليهودي ، التي ساهمت في الواقع في إفرازها ، وكما حدث في عصر الحروب الصليبية أخذ عدم التسامح الديني يشد أكثر فأكثر ، ولذا تدهورت الحالة الاقتصادية لليهود بسرعة ، وفي مجمع اللاتران في ١٢١٥ تقرر أن اليهود يجب أن يحرموا من كل الوظائف المدنية والعسكرية ، ومن تملك الأراضي ، وقد دمجت هذه القرارات في القانون الكنسي ، وكتجار أيضا كان اليهود في ظروف معوقة أكبر ، لأنه لم يعد بإمكانهم السفر دون المخاطرة بتعرضهم للقتل ، الى جانب أن المسيحيين أنفسهم بدأوا يتحولون الى التجارة وبنوا بسرعة اليهود الذين حرموا من العصبية الهندسياتية ، والذين لم يكن يمكنهم بالطبع منافسة المدن الإيطالية والفلمنكية ، وبالنسبة لليهود الأكثر غنى كان إقراض المال المجال الوحيد للنشاط الاقتصادي ، الذي بقي مفتوحا وكمقرضين للمال أمكنهم البقاء في بيوتهم ، بدون القيام برحلات خطيرة ، وبإبقاء ثروتهم في حالة سيولة كما أمكنهم في حالة الطوارئ الهرب دون فقدها كلها ، وعلاوة على ذلك مع الاقتصاد المتوسع بسرعة في غرب أوروبا كان هناك طلب مستمر وملح للتسليف وإقراض المال بالفائدة - الذي وسم بالربا الفاحش - وحرم على المسيحية بموجب القانون الكنسي وشجع اليهود الذين لم يكونوا بالطبع خاضعين للحظر ، وحتى أجبروا من قبل السلطات على الإقراض مقابل ضمانات ، وامتدحوا لتوليهم هذا العمل الضروري .

وكان إقراض المال اليهودي على أي حال ذا أهمية مؤقتة في الحياة الاقتصادية للعصور الوسطى ، ومع تطور الرأسمالية تجاهل المسيحيون أنفسهم بتصميم أكبر (ص ٨٠) الحظر الكنسي على اقراض الأموال .

وبالفعل مع حلول منتصف القرن الثاني عشر كان رأسماليو البلاد المنخفضة يقدمون قروضا كبيرة بالفائدة ، كما أصبح الايطاليون خبراء مصرفيين ، ومع هؤلاء الرجال عجز اليهود عن المنافسة ، وفرضت المدن واللوردات المحليون والملوك ضرائب ثقيلة على اليهود عندهم ، وكثيرا ما كان الاسهام اليهودي في الخزانة الملكية ومواردها المالية عشرة اضعاف ما سوغته أعدادهم ، ومرة أخرى وجد اليهود أنفسهم في ظروف غير مواتية بلا أمل ، ومع أن مقرضي الأموال بشكل فردي كانوا قادرين من حين لآخر لا سيما في البلدان المختلفة على تجميع ثروات كبيرة ، فإن الضرائب الكيفية كانت تنزل بهم الى الفقر مرة أخرى ، ولم يكن اليهود الأغنياء كثيرين أبدا : كان معظمهم ممن يسمى الآن أدنى الطبقة الوسطى ، وكان العديد منهم فقراء بكل معنى الكلمة ، وفي نهاية العصور الوسطى كان هناك قلة من الثروات اليهودية في شمال أوروبا للاسهام في التطور الهائل الذي تلا اكتشاف العالم الجديد .

وبتجريدهم من الثروات الكبيرة ، عاد بعض اليهود الى الاقراض على نطاق ضيق والاقراض لقاء رهن ، وهنا بالتأكيد كانت أسس الكراهية الشعبية وما كان مرة ثقافة يهودية مزدهرة تحول في ذلك الوقت الى مجتمع خائف محاصر في أعمال حربية دائمة مع المجتمع الأكبر المحيط به . ويمكن اعتباره مؤكدا أن مقرضي الأموال اليهود كانوا يستجيبون لعدم الأمان والاضطهاد باستخدام قسوتهم ، ولكن قبل أن يحدث ذلك بالفعل بزمان طويل أصبحت كراهية اليهود مستوطنة لدى الجماهير الأوروبية ، وحتى فيما بعد عندما شرعت الدشود في قتل اليهود فإنها لم تقصر نفسها على مقرضي الأموال القليلين نسبيا بل قتلت كل يهودي أمكنها أن تضع

يدها عليه ، ومن جانب آخر كان أي يهودي يقرض الاموال يسكنه أن ينجو من المذبحة بالخضوع للتعميد ، لأنه كان يعتقد أن النعميد يزيل طبيعته الشيطانية بشكل مؤكد . ولم يكن اليهود على أي حال هم الوحيدون الذين يقتلون ، وكما سنرى في الفصول المتأخرة إن حشود الفقراء التي كانت تستلهم الايمان بالأخرويات سرعان ما تحولت الى الاكليروس أيضا ، وهنا أيضا كان القتل ينفذ اعتقادا بأن الضحايا كانوا عملاء للمسيح الدجال وابليس ، وكانت ابادتهم شرطا لازما للالفية السعيدة ، وإذا كان معظم الناس قد اعتقدوا أن المسيح الدجال لابد أن يولد يهوديا ، فإن هناك العديد ممن اعتقدوا أنه سيكون ابنا لأسقف وراهبة ، علاوة على ذلك أن مارتن لوثر لم يكن (كما يفترض) أول من الح على فكرة أن المسيح الدجال الذي سيقم عرشه في المعبد لا يمكن أن يكون غير بابا روما ، وأن كنيسة روما بناء عليه هي كنيسة الشيطان .

فبين نوي الافكار المشبعة بالأخرويات في العصور الوسطى كانت الفكرة بالفعل عادية مألوفة وحتى بطلا مناصرا للكنيسة كالكديس برنارد قد أصبح يعتقد في توقعاته الشديدة للدراما الأخيرة أن عددا كبيرا من رجال اللاهوت يتبعون حشود المسيح الدجال ، وفي أقوال المتنبيء الذي أحرق كمهرطق في باريس في ١٢٠٩ فكرة مماثلة تبدو كجزء متمم من عقيدة استمدت بوضوح من تقاليد يوحنا والسبليينيين ، وكان هذا الرجل صائغا وتحول الى كاهن ، تنبأ بأنه خلال خمس سنوات ستهلك المجاعة الناس ، وسيذبح الملوك الواحد الآخر بالسيف وستنشق الأرض وتبتلع سكان المدن ، وفي النهاية ستسقط النار على الذين هم أتباع للمسيح الدجال من أساقفة الكنيسة ومطارنتها ، وأصر على أن البابا كان المسيح الدجال نظرا للسلطة التي يملكها ، وأن بابل سفر الرؤيا كانت في الواقع روما ، وبعد ذلك التطهير العظيم ستخضع الأرض كلها بكل ممالكها للملك المقبل لفرنسا لويس الثامن - كان مايزال الابن البكر للملك في ذلك الوقت - وهو ملك يؤمن بالأخرويات وتستحوذ عليه المعرفة وسلطة

الكتب المقدسة وسيحكم إلى الأبد تحت الشريعة والارادة الالهية
لروح القدس .

واي حركة الفية كانت في الواقع مجبرة تقريبا بموجب الحالة
التي وجدت نفسها فيها على أن تنظر إلى رجال اللاهوت على أنهم
أخوانية شيطانية ، وكانت جماعة من غير رجال اللاهوت برئاسة
قائد يدعي أنه مسيح منتظر ، ومقنعه أنها مكلفة من الرب بمهمة
كبيرة هي تمهيد الطريق للالفية ، ملتزمة بأن تجد في الكنيسة
المؤسساتية في أفضل الأحوال خصما عنيدا ، وفي أسوأها مضطهدا
قاسيا .

ولكن او لم يكن في طبيعة المسيح الدجال أن يفعل أي شيء في
إمكانه ليعوق بالخدعة والعنف التحقق الالهي المقدر ؟ واي الوسائل
يمكن أن يجدها افضل من أن يتنكر تحت العبادة والتاج البابوي ،
وأن يذشر السلطة الكبيرة والنفوذ الكنسي ضد القديسين ؟ فإذا كان
الأمر كذلك فما هي الطريقة الأخرى التي يمكن بها رؤية الكنيسة
المعادية للمسيح سوى كونها عاهرة بابل ، « المرأة السكرى بدم
القديسين » أم المقت « التي ارتكبت معها ملوك الأرض الزنا
والفسوق ، وأسكر سكان الأرض بنبيذ فسقها » ؟ وماهي الطريقة
الأخرى التي يمكن بها رؤية رجال لاهوت هذه الكنيسة غير الودش
متعدد الرؤوس الذي يخدم المسيح الدجال ويحمل العاهرة على ظهره
وهي تتلفظ بالتجديف وتحارب القديسين ؟ إن رجال اللاهوت
كودش سفر الرؤيا : هل هناك صورة أكثر اقناعا للالفين
المتحمسين الذين كانت حياة رجال اللاهوت في أعينهم لاشيء سوى
البهيمية ، والحياة الحيوانية وهو وجود أعطي كليا للعالم
والجسد .

هل كانت كنيسة العصور الوسطى حقا غارقة في مثل هذه المادية
الشديدة (ص ٨٢) أم أن الاعتقاد بهذا المعنى العام الذي مايزال
منتشرا حتى اليوم تبسيط مبالغ فيه يمكن مقارنته بذلك الذي قرن

يهودية العصور الوسطى بالربا الفاحش للعصور الوسطى ؟

إنه بالتأكيد لا يمكن نفي أن الكنيسة التي فعلت الكثير جدا لتشكيل مجتمع العصور الوسطى كانت أيضا إلى حد كبير جزءا من هذا المجتمع ، وبالفعل قبل سقوط الأمبراطورية الغربية كان الأباطرة بمنحهم الكنيسة ثروات المعابد الوثنية قد جعلوا منها أعظم مالك للأرض في العالم ، وهذا الغنى الذي مكن الكنيسة أن تنجو من الهجرات الكبيرة والغزوات سالمة نسبيا ، كان يتزايد قرنا بعد قرن بوصايا الارث والتقدمات من الأمراء والأغنياء ، وبموجب قانون الكنيسة كانت ممتلكات الكنيسة غير قابلة للتحويل ، وهكذا على الرغم من السلب من قبل اصحاب السلطان من المدنيين انتهت بأن أصبحت هائلة ومنظمة لها مثل هذا الموقف الجيد ولديها طبعاً توظيفات مغربية يمكن تقديمها، وكانت العائلات النبيلة في العادة تحصل بنفوذها أو حتى بالشراء على مراتب كنسية مريحة لابنائها الأصغر ، وكثير من الأساقفة ورعاة الأديرة الذين عينوا بهذه الطريقة كانوا ببساطة سياسيين ، أو من رجال الحاشية الملكية أو أمراء في زي كهنوتي ، وقد حول رعاة الأديرة أديرتهم إلى مؤسسات فاخرة في حين بنى الأساقفة قصورا محاطة بخنادق وأبراج وعاشوا فيها وفق النمط الفاخر نفسه الذي عاش فيه السادة الاقطاعيون العظام الآخرون ، ولم يكن بلا سبب أن الناس العاديين كانوا يشكون من رجال اللاهوت ومن « أنهم لا يعتنون بنا مطلقا ، إنهم يعيشون حياة فاضحة ، إنهم يدوسون على رؤوسنا ... إن الناس العاديين يصنعون كل شيء ويقدمون كل شيء ، ولكنهم لا يستطيعون العيش دون أن يتعذبوا إلى الأبد وأن يدفعوا إلى الخراب من قبل رجال اللاهوت إن رجال اللاهوت ذئاب ثائرة » .

علاوة على أنه على الأقل من القرن الثالث عشر وما بعده كانت البابوية نفسها بشكل واضح وبلا جدال دنيوية ، وكان البوابات يميلون لأن يكونوا في المقام الأول رجال دولة ورجال إدارة ، وأعظم متداول للمال ، وممكن إحياء التجارة البابوية من تطوير نظام مالي

على معايير أوروبية تشغل من قبل بيرقراطية معقدة عالية التدريب ، ومع ذلك فإن البابوية قد تدان بقوة « بالربا الفاحش » حسبما دعت الرأسمالية الجديدة ، واحتياجاتها المالية الخاصة قد اضطرتها إلى الاستفادة من كل وسائل جمع الأموال وزيادتها وقبل الملوك الدنيويين استخدام البابوات خدمات المصرفيين ، وبذلك الوسائل تمكنت البابوية من خوض معارك سياسية صرفة بوسائل سياسية صرفة بل وحتى شراء الحلفاء وشن الحروب ، وكانت أيضا قادرة مثل الملكية الكبيرة على المحافظة على بلاط لايبارى في الفخامة ، يمكن فيه للكيد والتآمر والانغماس في اللذات أحيانا أن يزدهر كما الترف في أي بلاط آخر ، وفي المراتب العليا من الهرم اللاهوتي كان هناك في الواقع ميل للتقارب مع الطريقة الطبيعية للحياة في الطبقة العليا من مجتمع المدنيين .

وعندما تكلم المؤمنون بالألفية في أواخر العصور الوسطى عن نبيوية الكنيسة (ص ٨٣) كانوا بالتأكيد يتكلمون عن شيء كان موجودا ، ولكن ما ليس أقل أهمية إن النبيوية هي كل ما كان يمكنهم رؤيته في الكنيسة ، وما لم يروه هو أنه مهما كان عمق التورط في المجتمع الدنيوي ، كانت الكنيسة ما تزال تمثل طريقة أكثر شفقة وإنسانية وزهدا بالحياة - وليس فقط بتعاليمها بل أيضا حتى في أكثر فتراتها نبيوية ، بتطبيقاتها وممارستها ، وفي عصر لا يعرف شيئا عن الخدمات الاجتماعية ، كان الرهبان وأعضاء الجمعيات الدينية فيما بعد يهتمون بالفقراء والمرضى كجزء من روتين لاجدال فيه ، ودون تفكير في جزاء أَرْضِي ، وفي قارة مرهقة بالحروب الاقطاعية عمل الاساقفة كل ما في وسعهم ، للتدبير بهدنة الرب ، وسلام الرب: للحد من المعاناة والتخريب ، وفي كل الأوقات كانت أعداد كبيرة من رجال اللاهوت تعيش حياة قاسية متزمتة ، والعديد حتى من الاساقفة الكبار كانوا يتجهون الى الورد ، وإذا كان رجال اللاهوت ينزلون باستمرار الى الدعة والراحة والانحلال - كما تميل يوما أي مجموعة كبيرة من الكائنات . فانه لم ينقصهم أبدا بعض ممن توفرت فيه الإرادة والقوة لطلب التوقف ومحاولة الإصلاح على

الأقل ، وتأسيس المراتب الرهبانية الجديدة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، وتجديدات القديس فرانس والقديس بومنيك في القرن الثالث عشر ، والحركة المجلسية للقرن الخامس عشر ، وحتى الحركة « الانجيلية » التي كانت تنتشر في عشية يوم الاصلاح نفسه هي فقط بعض الأمثلة على كثير من قدرات كنيسة العصور الوسطى على مواجهة النقص والعيوب الخاصة بها.

وبالحكم بمعايير المسيحية اللاتينية للعصور الوسطى ، التي كانت مقبولة من حيث المبدأ من الجميع على حد سواء ، كان سجل الكنيسة في الواقع بعيدا عن أن يكون كلي السواد ، ولكنه بدأ أسود كليا بالنسبة للآلاف الذين كانوا في الوقت نفسه خائفين ومفتونين لقرب حدوث المجيء الثاني ، وطبقوا هذه المعايير بتصلب ورفض كامل لأي تسامح ، وبحثت الحشود التي استلهمت الأخرويات عن زعماء يمكنهم أن يعتبروهم كائنات روحية صرفة ، بعيدة عن كل الاهتمامات المادية والحسابات متحررة من المتطلبات والرغبات الجسدية ، ومثل هؤلاء الزعماء يمكن أن ينظر إليهم كقديسين صانعين للمعجزات ، بل حتى كألهة حية ، ولكن بهذه المعايير كانت الادانة التامة الشيء الوحيد الممكن تجاه رجال اللاهوت لكونهم بشرا يزخرون بالضعف البشري ، وكان بسبب التوقعات المغالى فيها أن حركات الجماعات المؤمنة بالأخرويات لم تتمكن - كما تمكنت الكنيسة نفسها وفعلت - من أن تدين ببساطة مفاسد معينة ، وأن تنتقد بعض أفراد رجال اللاهوت بعينهم ، ولكن كان عليها أن ترى كل رجال اللاهوت في كل أفعالهم كمليشيا للمسيح الدجال ، مرتبطة بطبيعتها بالكدمن أجل الخراب المادي والروحي للنصرانية ، وبالكفاح بضراوة أكثر لأن النهاية قد باتت الآن قريبة ، وفي نقوش لورك (صورة ٢) يتقياً كاردينال شيطاني أسقفاً يقول « ابتعدوا بأنفسكم ، أيها الرب والبشر : الشيطان وأنا سادة » وفي رسم ديورر (ص ٨٤) للفصل السادس من سفر الرؤيا (صورة ٣) ليس فقط بابا وأسقف بل أيضا كهنة عاديين ورهبان يظهرون بين أولئك الذين في يوم العقاب الالهى سيصرخون بلا

جدوى فوق الجبال والصخور لتسقط عليهم وتخفيهم عن وجه المسيح المنتقم ، وعلى الرغم من تاريخها إن ما تعبر عنه هاتان الصورتان الرؤيتان مازال هو الشجب المرعب نفسه من الكنيسة ، للمسيح الدجال عندما يعبر عنه من قبل الطوائف الالفية للقرنين الثاني والثالث عشر .

التخيلات والقلق والخرافات الاجتماعية :

لوحظ من قبل المحللين النفسيين انه في نظر عالم مسيحية القرون الوسطى الحياة تميل الى أن ترى ككفاح مميت يشنه الآباء الطيبون والأطفال الطيبون ضد الآباء السيئين والأطفال السيئين. وبالتأكيد إن هذا النمط يبرز بصورة خامية صارخة في تخيلات الايمان الشعبي بالأخرويات والحركات الشعبية التي الهمتها.

وامتزجت شخصية قائد المؤمنين بالأخرويات - امبراطور الأيام الأخيرة أو المسيح العائد - بالصور الخيالية للاب الطيب والابن الطيب لأنه من جانب ملك القائد - مثل فرعون والعديد من الملوك المتألهين الآخر - كل نعوت الاب المثالي : انه حكيم تام ، وعادل بشكل كامل يحمي الضعيف ولكن من جانب هو الابن أيضا الذي مهمته تغيير العالم ، إنه المسيح الذي سيقوم سماء جديدة وأرضا جديدة والذي يمكنه أن يقول عن نفسه : « خذو حذرکم أنا اجعل كل شي جديدا ! » وكأب وابن ان هذه الشخصية جبارة هائلة فوق البشر ، كلية القدرة ، وهو قد حظي بوفرة من القوى الخارقة للطبيعة حتى انه تخيل متدفقا كالضوء : هذا الاشعاع الذي يرمز تقليديا للروح الداخلية ، التي لاتحيط فقط بالمسيح القائم بل تنسب أيضا الى الامبراطور المقبل كونستانس علاوة على ذلك كونها مليئة بالروح الالهية ان الزعيم لدى المؤمنين بالأخرويات يملك قوى فريدة صانعة للمعجزات ، وستكون جيوشه بلا خلاف منتصرة مبهتجة بالنصر ، وحضوره يجعل الأرض تعطي محاصيل هائلة ، وسيكون حكمه عصر انسجام تام كالسالف ، ولن يعرف عالم الفساد . ،

وبالطبع كانت هذه الصورة خيالية صرفة ، بمعنى أنها لاتحمل اي علاقة بالطبيعة الحقيقية وقدرة اي بشر وجد اصلا او يمكن ان يوجد ، وكانت مع تلك صورة يمكن ان تنعكس على شخص حي ، وكان هناك دائما رجال كانوا اكثر من راغبين بقول مثل هذا الانعكاس (ص ٨٥) لقد كانوا في الحقيقة يرغبون بصورة انفعالية ان يروا معصومين صانعين للمعجزات ومخلصين ، وفي الاساس كان مثل هؤلاء الرجال يأتون من المراتب الأدنى من اهل الفكر ويضمون عددا كبيرا من رجال الكهنوت الصغار ، وكهنة تركوا ابرشياتهم ، ورهبان هربوا من اديرتهم وكتاب في التنظيمات الدنيا ، وكانوا يضمون ايضا بعض العلمانيين الذين خلفوا لسواد المؤمنين من الناس كانوا يلتمون بالقراءة والكتابة من الحرفيين بشكل رئيسي ولكن ايضا بعض الموظفين الاداريين وحتى احيانا احد النبلاء الذي تكون طموحاته ارفع من منزلته ، وسر السطوة والهيمنة التي كانوا يمارسونها لم تكن ابدا في مولدهم ولا الى اي مدى بعيد في تعليمهم بل دائما في شخصياتهم ، وتلح الروايات المعاصرة عن مسحاء (ج مسيح) الفقراء هؤلاء عادة على بلاغتهم ، وعلى الهيبة والجلال ، وعلى الشخصية الأسرة ، وفوق كل شي يحصل المرء على انطباع انه حتى لو ان بعض هؤلاء الرجال كانوا بجالين شاعرين بالاثم ، فان كثيرا منهم راوا انفسهم كألهة متجسدة حقا او على الأقل اوعية للالهية ، وكان يعتقدون حقا انه من خلال مجيئهم كل شي سيتجدد ، وسيُنقل هذا الايمان الكلي نفسه بسهولة الى العامة الذين كانت اعماق رغباتهم وتطلعاتهم بشكل دقيق نحو مخلص أخروي .

ورأى الذين ربهطوا انفسهم بمثل المخلص فيها (انفسهم) اناسا مقدسين - ومقدسين فقط بسبب خضوعهم غير المشروط للمخلص وإيمانهم التام بالبعثة الأخروية كما حددها بنفسه ، لقد كانوا اطفاله الطيبين ، وكمكافأة كانوا يقاسمونه قوته الخارقة ، ولم يكن فقط ان القائد يذشر قوته لمنفعتهم ، بل أنهم انفسهم طالما أنهم يرتبطون به يشاركون في تلك القوة ، وبذلك

أصبحوا أكثر من بشر ، قديسين ، لايأثمون ، لايسقطون لقد كانوا الجيوش اللامعة « الذين يلبسون الكتان الأبيض النظيف » وكان انتظارهم النهائي مقررا منذ الأزل ، وفي الوقت نفسه إن كل صنيع من أعمالهم مع أنه قد يكون سرقة او اغتصاب او منبحة لم يكن فقط بلا اثم بل ايضا عملا مقدسا ، ولكن في مقابل جيوش القديسين ، ونادرا اقل قوة منها تظهر حشود الآباء والأبناء الشيطانية والائنات المتقاتلان كل منهما سالب الآخر ويعرفان معا بنمط رمزي غريب ، وكما في مسيح المؤمنين بالأخرويات ، كذلك في العدو الاخروي اي المسيح الدجال ، صور الابن والاب متداخلة وهنا بالطبع ان الصور هي لابن الشرير فقط « وكابن للهلاك » ان المسيح الدجال هو بكل شكل نظير شيطاني لابن الرب ، ومولده هو الذي يبشر بالايام الأخيرة ، وانتظر الناس بتوتر أبناء الولادة الغامضة المشؤومة في بابل ، وبهذه العلاقة مع الرب الأب يظهر المسيح الدجال كطفل ثائر رافض ، مهتم بانفعال باحباط مقاصد ابيه (ص ٨٦) ويجرؤ حتى على اغتصاب مكان ابيه وتقليد سلطته ، وفي علاقته بالكائنات البشرية ، من جانب آخر ، والمسيح الدجال هو أب لايكاد يتميز عن إبليس نفسه : أب حام لنوعه الشيطاني ، ولكن بالنسبة للقديسين هو أب شرير سفاح مخادع ، يخفي مقاصد الشر بكلمات حلوة ، طاغية ماكر عندما يقاوم يصبح مزعجا قاسيا وقاتلا ، ومثل القائد المسيحي ، إن المسيح الدجال مليء بالقوى الخارقة للطبيعة التي تمكنه من صنع المعجزات ، ولكن هذه القوى تأتي من الشيطان وتظهر في الفنون السوداء التي يستثمرها لتدمير القديسين ، حيث أن قوته ليست في قوة الروح فانه لايصدر عنه اي اشعاع ، وعلى العكس إنه كالشيطان من مخلوقات الظلام ، انه الوحش الذي يصعدها خارجا من الهوة التي لاقاع لها ، انه مخلوق غريب مرتبط بالأرض تخرج من قمة ضفادع قذرة وعقارب ورموز أخبرى مألوفة للطين والقذارة .

وكل شي عكس على الشخصية المتخيلة للمسيح الدجال عكس

ايضا على « جماعات الحواشي » التي كانت تعتبر انها تخدمه ، وحتى من قبل علماء اللاهوت الاصوليين نظر الاصوليون الى اليهود على أنهم أطفال أشرار يذكرون بعناد الدعوات ويتحدون و يستهينون بجلال الرب ، أي الجميع ، و في نظر الطائفين المتعصبين الذين رأوا في البابا المسيح الدجال ، كان لابد ايضا من ان يظهر رجال اللاهوت كسلالة خائنة ثائرة ضد أبيها الحقيقي ، و لكن اليهود و رجال اللاهوت يمكن ان يروا ايضا بكل سهولة كشخصيات - أبوية ، وهذا واضح بدرجة كافية في حالة رجال اللاهوت ، الذين يدعون ، فعلا « بالأبائي » من قبل المؤمنين و اذا كانت المسألة أقل وضوحا في حالة اليهود ، انها مع ذلك حقيقة ، وحتى اليوم ان اليهودي - الرجل الذي يتعلق بالعهد القديم ويرفض الجديد ، واحد الناس الذين ولد فيهم المسيح - يتخيل من قبل كثير من المسيحيين على أنه « يهودي نمونجي قديم » شخصية بائسة في ملابس قديمة بالية .

ويندمج بالتخيلات الأخروية ، اليهود ورجال اللاهوت على السواء حيث عدوا شخصيات أبوية من نوع مرعب جدا ، انه ذلك المخلوق الغريب ذو الغضب المدمر والقوة الاحليلية ، الذي يصوره ملكيورلورخ وهو يرتدي قلنسوة البسابة المثلثية ، ويحمل المفاتيح ، و صليب البابا ، وقد رأى من قبل الالفيين في كل « رجل لاهوت مزيف » وبالنسبة لليهود ان الاعتقاد بانهم قتلوا أطفال مسيحيين كان واسع الانتشار جدا ومازال عالقا بثبات الى حد ان كل احتجاجات البابوات و الأساقفة - وكان هناك الكثير منها - لم تستطع أبدا أن تنتزعها ، و اذا فحص احد صورة اليهود وهم يعذبون و يخصون صبيا بريئا بلا حول (الصورة ٤) فإنه يقدر بحق مقدار الخوف و الكراهية الذين يمكن بهما النظر الى شخصية الأب السيئ المتخيلة ، وبقية الذخيرة من الاتهامات التي وجهت ضد اليهود في أوروبا العصور الوسطى بالجلد بالسياط ، و الطعن و سحق الحشود لها الأهمية نفسها والدلالة ، و اذا كانت مسألة الوحشية المرتكبة ضد الحشود هي من وجهة نظر اليهود بلا معنى

(ص ٨٧) انها من وجهة نظر مسيحي القرون الوسطى تكرار لتعذيب المسيح وقتله ، وهنا ايضا تم تصور الاب الشرير (اليهودي) وهو يهاجم الابن الطيب ، وهذا التفسير تولد من القصص الكثيرة حول كيف انه من وسط الكعكة المشوّهة ، ظهر المسيح كطفل يقطر دما ويصرخ .

ونسبت لهذه الشياطين ذات الشكل البشري واليهود و « الأكليروس المزيف » ، كل صفة من صفات الوحش الآتي من جهنم ، ليس فقط وحشيته بل ضخامته ، وحيوانيته و سواده و عدم نظافته ، و كان اليهود و الأكليروس معا يشكلون الحشد الأسود البغيض للعدو الذي وقف في مقابل الجيش الأبيض للقديسين ، « أبناء الله هذا نحن - الديدان السامة هذا أنتم » ، كما وضعها رجال من العصور الوسطى ، و عرف القديسيون أن مهمتهم كانت محو الحشد الأسود البغيض من على وجه الأرض ، لأن أرضا تطهرت هكذا ستكون هي فقط صالحة لحمل القدس الجديد ، المملكة المشرقة للقديسين .

وكانت حضارة أواخر القرون الوسطى دائما ميالة لشيطنة الحشود الناشزة ، ولكن في أوقات الارتباك الحاد والانحراف كان هذا الميل ملحوظا بشكل خاص ، ولم تعط المصاعب والاكتئاب في حد ذاتها تلك النتائج ، وكان الفقر والحروب والمجاعات المحلية الى حد كبير جزءا من الحياة الطبيعية حتى أنها كانت تؤخذ بشكل مؤكد ويمكن بناء عليه ان تواجه الى حد كبير بطريقة وقوة وواقعية ولكن عندما تقوم حالة لم تكن خطرة فقط بل خاسرة كلية عن المجرى الطبيعي للتجارب المألوفة ، أي عندما يواجه الناس بمخاطر مخيفة لأنها غير مألوفة ، في مثل هذه الأوقات يحدث الهرب الجماعي الى عالم التخيلات الشيطانية ويتم بسهولة ، و اذا كان التهديد غامرا بدرجة كافية، فان الارتباك ينتشر انتشارا واسعا وحادا بدرجة كافية ، ويمكن ان يقع وهم كبير من النوع المتفجر ، وهكذا عندما وصل الموت الأسود الى أوروبا الغربية في

١٣٤٨ ، استنتج على الفور أن بعض طبقات الناس ربما قد ادخلت الى موارد المياه سما مستخلصا من العناكب والضفادع والسحالي - وكلها رموز للأرض والقذارة والشيطان - أو ربما من زاحفة خرافية تشبه الضب ، ومع استمرار الوباء أصبح الناس في حيرة ويأس أكثر فأكثر ، وتأرجح الشك بين هناك وهناك وهو يومض على التوالي على المنبوذين ، والفقراء ، والاكليروس ، قبل أن يأتي في النهاية ليستقر على اليهود الذين كانوا قد أبيدوا تقريبا .

ولكن لم تكن كل الطبقات في المجتمع معرضة بالتساوي لتجارب أرضية مربكة ، وكما رأينا بين الجماهير في مناطق الحياة المستقرة المكتظة بالسكان كان هناك دائما العديد الذين عاشوا في حالة انعدام الأمن المزمنا التي لامفر منها (ص ٨٨) وقد أزعجهم ليس فقط عجزهم الاقتصادي وضعفهم بل نقص العلاقات الاجتماعية التقليدية التي عليها كان الفلاحون حتى في أسوأ الأوقات قادرين على الاعتماد بصورة طبيعية .

لقد كان هؤلاء هم الناس الذين كثيرا ما أصيبوا بالكوارث ، والأقل قدرة على التغلب عليها ، وكان هؤلاء هم الناس الذين عندما كانوا يواجهون بمشكلات غامرة ويعذبهم القلق غير المحتمل مالوا نحو البحث عن قادة مسحاء ، وتخللوا أنفسهم قديسين محاربين ، وأمكن بسهولة مزج التخيلات الناتجة مع الأمان بالأخرويات المستمدة من رؤيا يوحنا و السبليين وبهذه الصورة أصبحت أسطورة إجتماعية مترابطة ، ولم تهكن الخرافة بالطبع الحشود التي لاحول لها من التغلب على مازقها ، وكثيرا ما حدثت على مناهج من العمل ثبت انها انتحارية بمعنى الكلمة غير انها استطاعت أن تحتزن قلقهم في وضع حرج ، وجعلتهم يشعرون بأنهم مهمين بدرجة هائلة وأقوياء بدرجة عظيمة ، وأعطاهم ذلك تأملات لاتقاوم .

وعلى ذلك تصرفت الجماهير بطاقة ضاربية وتخيلات

مشتركة ، ومع أنها كانت مضللة إنها سببت لهم راحة انفعالية شديدة الى حد أنه أمكنهم أن يعيشوا فقط من خلالها ، وكانوا بشكل كامل راغبين في القتل والموت من أجلها ، وهذه الظاهرة كانت قابلة للتكرار عدة مرات ، في اجزاء مختلفة في غرب ووسط أوروبا بين القرن الثاني والقرن السادس عشر .